نصوص بقلم:

شيماء زهر الدين

لعبةُ
سباقٍ للسّكاكين

بقلم:
شيماء زهر الدين

لعبةُ
سباقٍ للسّكاكين

رسوم:
شيماء زهر الدين

شكر خاص:
مهاب مكارم

تصميم الكتاب:
ياسر خانكان

الإهداء:

إلى كُل مَن شاهد تعثّري، وراهن على نجاحي...

ضلعي الأيمن (أمّي)، ضلعي الأيسر (أبي)

أشقّاء الخافق (شادي، جول، غيث، أدهم، مفيد، كريم)
أحبّاء الروح (سامر، ماهر، رولا، علا، علا)

صديقة أيّامي (جوليا)

شقيقتي عمري (وعد، نايا)

وأخيراً إلى الروح التي صنعت قوّتي (جدّتي وفاء)

وإلى ملاكي الحارس الذي أحكم جعلي سيّدة أحلامي (خالتي سوزان)
لولاكنّ أنتنّ الاثنتين لما كنتُ هنا.

وأيضاً:

إلى الذين حاولوا عرقلة طريقي

وجعلوني أقارع الفوضى

إلى من امتلأت قلوبهم بالبغض

وعبث الحسدُ في قلوبهم

أُهديكم مرضاً جديداً كمفعولِ اسمي في مسامعكم

يقولون
أنّ الّذين يجعلُ الموتُ منهُم دُمىً لجَبروتهِ يَقضونَ آخر أيّامهم
يبتلعُ الضّياعُ ملامحهُم
جياعٌ للنّومِ كثيراً
يرضعونَ الشّفقةَ من أفواهِ المارّة
يتلقّفونَ الذّكريات إلى الدّم مُباشرةً، لا مجالاً موجوداً لأن يضعَ القلبُ لمساتهِ عليها ...

يقولون
أنّ الّذين يجعلُ الموتُ منهُم دُمىً لجَبروتهِ يعيشونَ على قيدِ الجحيم،
وتُستنزَف أحلامُهم بسببهم
أيديهم هي الّتي تحلقُ شعرَ رؤوسهم
وتبسطُ كفّيها لحياةٍ قضمَ أطرافها اليأس

يقولون،
وكثُر ما يَقولون
إلا أنا هنا دوري لأقول: من ستقرؤون عنهم ها هنا عُجِنَت أيامُهم
بجُروحٍ كارثيّة،
ودمهُم تجلّط في أنسجتهم دونَ أن يدركوا ذاتهُم...
فكُلّ منكم عندما ينتهي
سيتذكّرُ اقتباساً واحداً مُفجعاً، وسينقلهُ كسيرةٍ ذاتيّةٍ لكلّ
الشخصيات،

حتى تتزاحم هذه العبارةُ على طنين الأذن دونما تَوقّف لتقول:

إلّا أنّني
لم أعُد أتذكّر
أيّ السّكاكين كانت أحنّ...

السّكّينة الأولى:

اخترتَ أن تحبّني بكلّ حالاتي،

ماذا لو كنتُ شَيطاناً ؟!

قنبلة..

قنبلتان..

ثلاثة..

دويُّ انفجارٍ تلو الآخر، وأنا جالسٌ أحدّقُ بصورتكِ مُستهزئاً ...
بكِ؟!
لا أبداً،

مُستهزئٌ بأنَّ كلّ روائحِ اللَّحمِ المَشويّ المُنبعثةِ من الخارج، لا تُساوي ربعَ ذرّاتٍ من مادّةِ الاحتراقِ الّتي عاثت حفَل الشّواءِ المُقامِ نصبَ أضلُعي.
جَوفي يتحضّرُ لشيءٍ ما،

وأنا
غيرُ مسؤولٍ عنه بتاتاً.

المَسؤولُ الأوّل والأخيرُ والموجّهةُ إليهِ أصابعُ التُّهمة بشكلٍ أساسيٍّ:
أنتِ!

مَن يجعلُني سكّيراً يَحضرُ نهاراً مرّةً ويغيبُ مئةً وتسعينَ مرّة:
أنتِ!

مَن يقومُ بإقناعي لمُمارسةِ التّعذيبِ الذّاتيّ بغيرِ ذَنبٍ:
أنتِ!

دافِعي لترتيبِ صخبِ صَوتِ المَوتِ على رئتيَّ، مُغريَتي لتجرّعِ أنخابِ الويسكي المُستهترة، مُحرّضُ شُعوري بوجوبِ قطعِ لِساني، والطّفلُ الماكرُ الّذي يدفعُني لشتمِ الأشخاص المارّين بِلا سببٍ، وجارَّتي لجعلي أنيسَ كُلِّ دعارى الحانات...
أنتِ!

أنتِ...
الجنّيُّ الّذي تلبّسني،

أنتِ...
ملاكٌ كبيرٌ بذيلِ شيطانٍ معَ قُرونٍ لتحسينِ المَظهر

أنتِ...
قمّةُ الفَوضى في دِركِ الصّخب

وأنا
غبيٌّ مُنصاعٌ لهَيبتكِ.

قُنبلة

قنبلتان

ثلاثة

عُدنا لنقطةِ البِداية...

«أمسِك السّكّين يا مُنهار»
حاضر
«فلتشقَّ عُنقك»
تنفيذ!.

السّكّينة الثانية:

أتتسكّعُ بقلبي لَتروي فَقدك!

سيّدي،

أمُخدّرٌ هذا أم صَوتُك؟

صَوتُكَ!
أنا بمرحلةِ اللّامُبالاةِ العاجِزةِ أمامَه.
جُرعةٌ واحدةٌ من كلمةِ «مرحباً» منه،
تفوقُ جرعاتٍ ضخمةً من المورفين.

كما تَعلم،
أنا مريضةُ سرطانٍ في المرحلةِ الأخيرة،
والمورفينُ مُهدِّئُ آلامِ المراحلِ المُتقدّمة،

وأنت!.
مفعولُ صَوتك يفوقُ مَفعولَ المهدِّئ،
أو أنّك لا تَعلم؟
ومنذُ متى تعلمُ شيئاً عنّي!؟.
ليسَ بذلك الأهمّية
العلمُ في بعضِ المَواقعِ مؤذٍ،

وأنتَ الأذى بذاتهِ في حالِ علمتُ عنكَ شَيئاً أم لم أعلَم.
صوتُ صريرِ بابِ الغُرفةِ أيقَظ رغبَتي بمزيدٍ من تسوّلي لأصواتٍ
عُرَبُها تشبهُ عُرَبَ أحبالكَ الصّوتية،
أتُلاحظُ معي؟!.
أنا شخصٌ يتعلّق بالآخرِ لمجرّدِ أنّ صوتهُ لطيفٌ،
فتجدُني أُعطيهِ قلبي على طبقٍ من حبّ وأقول:
«صوتكَ يستحقُّ انتزاعَ خافِقي من أيسَري بلا سبب».

خطواتٌ أيقظَت عينيَّ هذهِ المرّة،
أُديرُ وَجهي ناحيةَ القادِم، فتُفرقعُ فقراتي العُلويّة مُحدثةً ألماً
عنوانُه: «لا تلتفتي لأحدٍ يا تافِهة».

ومع ذلك أُصرُّ على معرفةِ هويّةِ صاحبِ الخطواتِ الهادِئة..
هادئة!؟
على الأرضِ لا على قَلبي.
ومعَ اقترابِ كّل خطوةٍ، تصطكُّ أسناني ببعضِها، مُعلنةً عن خوفٍ
بدأ يقضمُ أطرافَ جسدي.

«مرحباً يا أُقحوانَتي»
ربّاه!
لا أُطيقُ وجودَه. إنّ الأصعبَ من غيابِه طويلاً هو وجودهُ الباهتُ
الّذي يأكُل من عظامِ أيّامي ويشربُ من دمائها.

«يُزعجكِ صَوتي يا ذاتَ العَينين الفلكيّتين؟»
«ارحل بحقِّ حبّنا!»
«حبُّنا؟
أنا لَم أُحبّكِ قطُّ،
كنتُ أتسكّعُ في قلبكِ لأروي فَقدي»

نِهاية...

الخاطرُ الأخيرُ كانَ مُهدّئاً أكثرَ من المورفين وصوتِه معاً.
الحَقيقةُ الّتي يكذبُها علينا الآخر،
هي أكبرُ مُهدِّئٍ اكتشفتُه الآن،

وأدّى لطعنِ أيسَري بهديلِ صوتهِ ممزوجاً بتناغُمه مع الكذبةِ الحَقيقيّة،

مُحدثاً طبقاً في صَدري وصفيراً لا يَنتهي، أطلقهُ جهازُ مراقبةِ النّبض.

السّكّينة الثالثة:

ضائعٌ داخَل حُدودِ ملامحكِ، أبحثُ فيهما
عن وَجهي، الحقّ علَيّ، بل كُلّ الحقّ عليّ...
أنتِ فوضى!
وأنا عزُّ التّرتيب
كيَف أدخلتُكِ ذاكرَتي؟!

في أمّةِ التّلاشي،
أيّامي تُعدُّ: كلّ يَومٍ أربعُمائةِ ساعةٍ من ساعاتِ فَوضى المَلامح.

للتّنويه:
الملامحُ هنا ملامحُكِ،
والفَوضى ملايينُ الصّورِ المَطبوعةِ من ملامحكِ على دفترِ عقلي
المَنسيّ جُزئيّاً.
حَقيقةً،
أحبُّ فيكِ روحكِ المُتمرّدةَ،
لذا فالصّفحةُ الأولى لوحةٌ رَسَمَتها ريشَتي لروحكِ،
ملاكٌ لهُ قرني شيطانٍ لَطيف اسمهُ: «عَدوّي اللّدود»
ولقبهُ الكاذبُ: «حبيبةُ أيّامي».
تُريدينَ معرفةَ كيفَ هوَ لَونُ روحكِ برأيي؟

صفراء!.

صفراءُ شحيحةٌ كالصّيف، لاذعةٌ كالشّمس، وكاللّهبِ تترُك على جسدكِ حُروقاً من الدّرجةِ الأولى، لا يَشفيها إلّا مرهمٌ علاجيٌّ يحملُ دموعاً منكِ...

هل استدركتِ معنى هذا؟!

لا يُهمّ.

على أيِّ حالٍ أنتِ فتاةُ النّجوم،

وأنا أخشى الظّهورَ ليلاً خوفاً من وجودكِ الدّائم.

أخشاكِ نعم،

وأخشى النّجومَ في حضرتكِ،

وأخشى وجهكِ.

في الحَقيقةِ أنا مُدمنٌ ممنوعاتٍ من نَوعِ المارغوانا

وأنتِ..

آهٍ منكِ، وجهكِ أحدُ أقراصِ المارغوانا التّائهةِ في تفاهةِ حيّنا،

وأنا لا أُقاومُه أبداً.

المُهمّ،

ألستِ سيّدةَ البَوحِ الصّامت؟!.

أخبري ملامحكِ أن تُقصيَ نفسها عن عقلي،

والسَّاعاتِ الأربعمائةِ في الأربعِ والعشرينَ ساعةً خاصّةَ يومي،
فإنّها تأكُل ثنايا دماغي ثَنيّةً ثنيّة،
وتُمارسُ عليها أشدّ أنواعِ التّعذيبِ مِن عناقِ الأشواكِ إلى
لمساتِ النّار. نظراتُ السّيوف والقُبلات الحاملةِ للسّم،
كفاهُم وكفاكِ يا صغيرَتي المُتفحّمةِ حقداً..
«سنعقدُ هُدنة»

تمزحين!؟ موافقٌ بكّل المقاييس!.

«تقضي الهُدنةُ بجعلِ دماغكَ مُستعمَرَةً لأطيافي، وأنت تأخذُ
مخدّراً من وَجهي».

لا!
لم نتّفق على هـ...
«انتشارٌ يا أطيافي، عيثوا ذاكرَتَه خراباً»

السّكّينة الرّابعة:

كنتُ أريدُ حياةً لا أكثر...

من عُمقِ الحدَث...
أُتكمّشُ بستارِ النّافذة،
وأنظرُ إلى الأسفَل بنهمِ عجوزٍ يتوقُ للقاءِ مَلَكِ المَوت،
وشراهةِ طفلٍ بعُمرِ السّنتين لا يَتناهى عن استكشافِ كُلّ غريب.

أُحدّثُ نفسي:
«هيَ خُطوةٌ واحدةٌ، افعَلْها ولَن تندم يا أبله...
أَليسَت الهاويةُ توءماً للحبّ لكن أبشعُ شكلاً!؟

إذاً ممّا تخاف؟!

دائماً ما تُقابِلُ أشخاصاً بَشعينَ بقلبٍ أصفى منَ السّماء،
وقلبُ الهاويةِ يَشتاقُ لك ويُحبّذُ خلاصك!».

خلاصي!
كلمةٌ تعبُرُ مسمعي كَسحابةٍ لطيفةٍ في قساوةِ الصّيف.
أُفكّرُ مراراً
هُم حقّاً سَلبوا منّي حقّ كُلّ شيءٍ.

يَعلمون مُنذُ طفولتي أنّني أُعاني الأمراض،
وأتجرّعُ كأسَ التّوحُّدِ مع رشّةِ سُخفٍ على أيّامي
ومع ذلك،

لم يَتوانوا ساعةً عن تَركي أُصارعُ شبحَ الفوضى التّوحُّديّةِ
بمُفردي،
وعقبَها!

ربّاهُ ما حصلَ عُقبَها،
ألبَسوني ثوبَ الإهانةِ لأنّني لم أكُن ابناً كما يتوقون،
ونَسَوا حقّاً مسألةَ ذبحي ألفاً وتسعينَ مرّةً في اليَومِ بلسانِ
حُثالةِ النّاس؛ الّذينَ يَرَونني كسيحاً لا يَقوى على مُقارشةِ أحدٍ،
فهوَ عاجزٌ عن قولِ «اسكتوا!» بسببِ خوفهِ من كلّ شيء.
أنا ..
حقّاً قُتلتُ آلافَ المرّاتِ كلَّ يَومٍ،
وعائلتي!
هه

لم تنبِس ببنتِ شَفةٍ لكبحِ جِماحِ حُزني عَن قَتلي.
عشتُ للان،
وأنا أزدادُ يقيناً يوماً بعدَ يوم،
أنّ الإنسانَ لا يموتُ عندما يتوقّف قلبهُ عن ضخِّ الدّم لأشلاءِ
جسدهِ الهَزيل،
وإنّما يموتُ عندما يفقدُ روحاً حيّةً بجانبهِ لكن مَقتولةٌ في قلبه..
صوتُ صعودٍ على الدّرجِ المؤدي لغُرفتي،
تذكّروا أنّ لديهم طفلاً بعمرِ السَّابعةَ عشر، لَم يأكُل منذُ أسبوع.
إذاً حانَت لحظةُ الوداعِ الأخير!.

فُتحَ بابُ غرفتي،
شهقت أُمّي وهي تراني أقُف على حافّةِ النّافذة
وأناملي مُعلّقةٌ بالسّتار:
«انزل يا تافه!
غبيٌّ ستجلبُ لنا المَصائب!».

خلفَها أبي بصوتٍ بارد:
«أيّها الأحمق، أيُّ شيءٍ سيُنجيكَ من سياطي لو لم تنزل الآن،
ها؟»

حتّى وأنا أُهدّدهُم برحيلي الأبديّ،
كانوا لا يفهمونَ أنّني سأغيب.

لن أكونَ الجبانَ هذهِ المرّة:
«المَوتُ يا أبي،
المَوتُ سيُنجيني من قبضتك.

افرحي يا أُمّي،
سأُثبتُ لكِ أنَّ ابنكِ شُجاعٌ كجميعِ مَن قارنتني بهم».
أغلقتُ عينيَّ،
وانضممتُ لعناقٍ أبديٍّ مع حَبيبتي الهاوية،
عناقٌ لن أنساهُ أبداً لأنّهُ انتزعَني من دِركِ جهنّم عائلتي.

السّكّينة الخامسة:

لو احترقتُ معهُم،

ألم يكُن هذا أفضل لقَلبي؟!

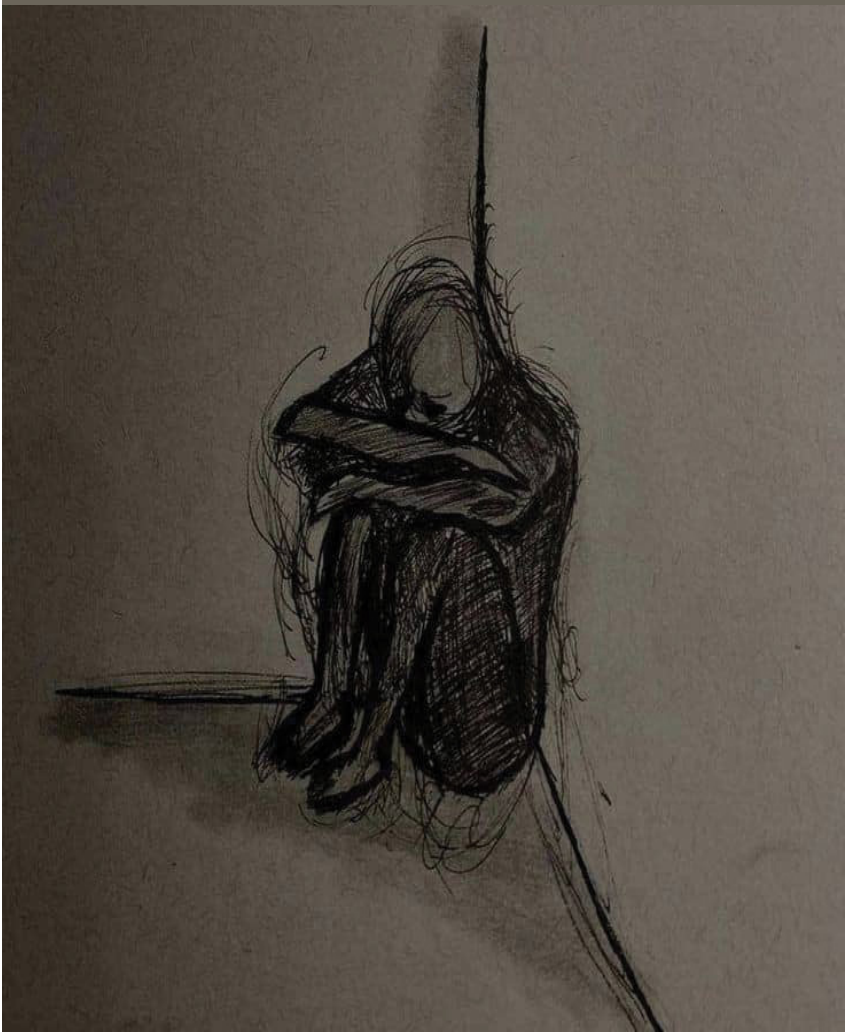

على حافّةِ الذّكرى،
أقُف مع ثُنائيّةٍ صغيرةٍ،
أوّلُها صُورتكِ وآخرُها شُعوري،
تارِكاً لكُلٍّ منّا مساحتهُ الكافيةَ في التّنفس
على عكسِ ما كُنتُ أفعلُ معكِ.

كُنتُ أرفضُ التّنفُّسَ من هواءِ المَكان الّذي يَجمعُنا،
حَتميٌّ عليَّ التّنفّسُ من بقايا أنفاسك كطفلٍ مُتشرّدٍ يتعاطى
الهيروين، وانقطَعت عنهُ المادّةُ فجأة،
فوجدَ في أنفاسكِ ضالّته...

أُقلّبُ الصّورةَ على وَجهَيها.

الوجهُ الأوّل: شمسان دافئتان غرقَ بهما قَلبي،
سَيلٌ من ملامحَ عَرقلَت أبجديّتي،
ضَفيرتانِ بُندُقيّتان عُقدتا في نهايتِهما بشريطةٍ أهدَيتُكِ إيّاها في
عيدِ مَولدكِ الأسود كما سمّيته، ولا أذكُر لماذا نعتّهِ هكذا، مع
أنّهُ كانَ أوّلَ عيدِ ميلادٍ لكِ نقضيهِ معاً..
لا يُهمّ.

حسَدي للشّرائطِ على مُعانَقتها لضَفيرَتيكِ وتحقيقها حُلمي لكّل
لحظةٍ هوَ الأهمّ!.

لا بأس، ها أنا بجانبكِ في الصّورةِ على الأقلّ، أنظُرِ إليكِ كأنّكِ آخرُ أُنثى على وجهِ الأرض، وانعكاسُ هَيكلكِ في عَينيّ يُعطيني رمقاً إضافيّاً.

أذكُرُ يَومها أنّي قُلتُ لكِ:
أنتِ الفنُّ أمّا دونكِ فنواسخُ،
وَهيهاتٌ تشبيهُ المَصابيحِ بالبَدر.

فسَدلتي جفنيكِ خِماراً على لَوزيّتَي وجهكِ لأحترقَ أنا بخُسوفِ أجملِ شيءٍ رأيتُه،
لكنّني ارتحتُ مؤقّتاً لأنَّ عَينيكِ هكذا لا تظهرُ للعابِرين وستكونينَ أقلّ عُرضةً للحبّ!.

الوجهُ الثّاني: اقتباسٌ منّي،
تصلحُ صورتُك أن تكونَ غلافاً لقلبي.

أعادَني الاقتباسُ إلى يَومِ لُقيانا بالأساس.
لفرطِ ضيائكِ لا زالَت عيناي مُنيرتان...
انتَهيتُ من الصّورة،
طوَيتُها مَعَ شُعوري وأعدتُها لحَقيبتي،
وتقصّيتُ المكانَ جيئةً وذهاباً أُفتّشُ عَنكِ،

ثمّ اصطدمَتْ حدقتايَ بجريدةٍ عُلِّقت على إحدى مقاعدِ المَكان:
«في مساءِ اليَومِ الخامسِ عشر من شهرِ أيّار، ابتلعَ حريقٌ كَبيرٌ حديقةَ(....) وقُدِّرَ عددُ الضّحايا بِـ٢٨ شخصاً من ضمنهم عائلةٌ كانت تحتفلُ بعيدِ مَولدِ فتاتهم الوحيدة. والجديرُ بالذّكر أنّ جميعَ من في الحفل توفّاهم الله، باستثناءِ صديقِ الفتاةِ».
المولدُ الأسود...

ذهبتِ أنتِ لحياةٍ أُخرى،
وأنا ما زلتُ هُنا أجمعُ حبّي اليتيمَ لكِ
عهداً من اليَومِ حتى الأزل.

السّكّينة السّادسة:

هكذا أحبَبتُها، الحياةُ ترتعشُ داخَل أوصالِها،

أحبَبتها وكلّي يقينٌ أنّها تستحقّ حبري

ودخول خلواتي...

لكنّ الدّنيا بلا رحمة!

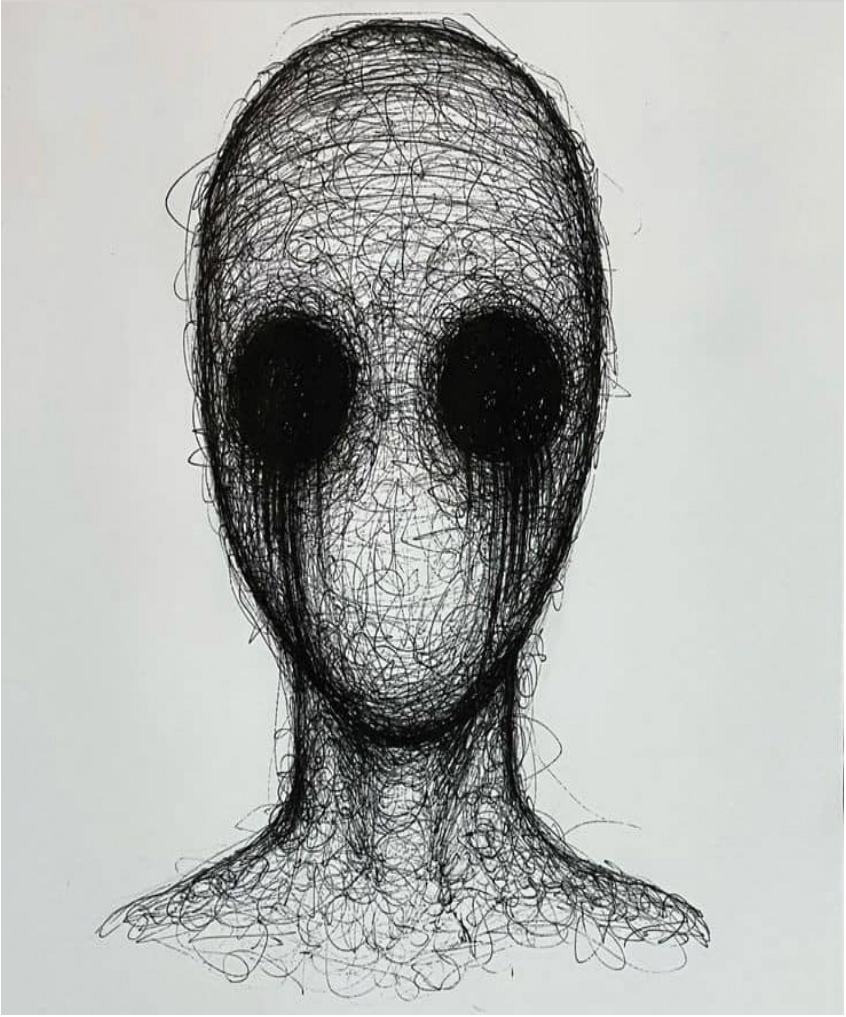

داخَل قوقعَتي الكَئيبة،
أغزُل لَنا خُيوطَاً لا تُقطَع كما تَقطَعين خُيوطَ نياطي،
وأشغلُ نفسي عَنكِ بأيِّ طَريقةٍ حتّى أمنعكِ من الظّهورِ في كابوسي...

حَبيبَتي الوَحيدة،
اسمكِ من الآن فصاعداً «الوَحدة».
الوحدةُ لأنّكِ وَحيدةٌ في قلبي،
وحيدةٌ في رَونقكِ، وحيدةٌ في تصرّفاتكِ، والأهمّ
أنّكِ تَجلبينَ لي الوَحدةَ بسببِ هَجركِ!.

تهجُرينَني أنتِ وطَيفكِ جانبي،
طَيفُكِ وفيٌّ لا يحتملُ الفراقَ ولا يُحبّذه.

يُحبّني طَيفكِ جدّاً، تخيّلي!
كلّما جلَسنا معاً دخّنتُ أنا سيجاراً
وهوَ دخّنَ روحي!.

أترَين، أسلوبٌ حَنونٌ وناعمٌ جدّاً للتّعبيرِ عن مدى عشقهِ لي.
لا تغاري يا «وحدة»،
أُحبّكِ أيضاً،
أُحبّكِ بشكلٍ لا أستَطيعُ وصفَه.

كلّما حاوَلتُ الكِتابةَ عن مدى حُبّي لكِ تتعثّرُ أبجديّتي.
ليسَ لديّ أبجديّةٌ في العُموم،
بلاغَتي صفرٌ على الشّمال، إلّا في حالِ تطلّبَ الأمرُ الحديثَ عن شيءٍ واحد،
فأنا هُنا أكبرُ البَليغين وكُلّ بلاغتي أربعةُ أحرُف:
(صوتُكِ).

لِذا لا تُثيري بي حسَّ الإجرامِ وتُغنّي لأحدٍ غَيري،
تذكّري أنّي كُنتُ شريداً في الشّارعِ، والتَقطَتْ أُذني صَوتكِ فأصبحَ عندي منزلاً آمناً، لا أُريدُ لأيّ شريدٍ غَيري أن يَحظى به!.

إذاً يا «وحدة»،
مَلّ الجميعُ من حَديثي المُتكرّرِ عنكِ، لكنّني لم أملّ ولن أفعَلها.
أُنثى مثلكِ تستحقُّ أن يُوضعَ وَجهُها في مُتحفِ الجمال، وأنا أرى أنـ...
«أحضروا هذا المُدمنَ إلى هُنا»
لحظة! ما الّذي جرى؟!
لمَ الشّرطةُ في قوقعتي!!
اقتحَموا عليَّ خَلوَتي بحِبري لأكتُبَ لكِ!
غرزوا شيئاً في وَريدي، ربّاه أهذا مُخدّر؟ سبعُ دقائق منَ الدّورانِ حتّى توقّف الضّجيجُ المُفاجئ في أذنيّ. فتحتُ عينيّ بعدها بتبلُّدٍ،

يدانِ مَليئتان بالدّماء،
سكّينٌ كَبير،
جَسدٌ مَطعونٌ بثماني عشرةَ طعنةً موزّعة عليهِ بشكلٍ احترافيّ،
و... وجهُ «وحدة»،
قتلتُها؟!.

يدايَ مُكبّلتان، وعَقلي عندَ قلبها.
لم أكُن أعلمُ أبداً أنّي لو أخذتُ أقراصَ المارغوانا المخدّرةِ
خاصّتي وهيَ برفقَتي سأقتُلها، كنتُ أريدُ أن أبتعدَ عن مُرِّ الواقعِ
وهيَ مَعي
داخَل قوقعَتي الكَئيبة.
اغتُصِبَ حقُّ «وحدة» بالعَيش،
وأنا الشّخصُ السّيّءُ المَنبوذ لازلتُ أتنفّس...

السّكّينة السّابعة:

لستُ مُختلّاً!

لستُ مريضاً!

تقبّلوني!

أُحاوِل جاهِداً
صلبَ سَكينةِ قلبي لأحظى بالحُرّيّة
عبثاً في وجهِ الدُّنيا ...
يَشتكونَ من عُقدي النّفسيّةِ؟!
هه
حقّاً مُؤسف!
مساكينُ توّاقونَ للشّماتة!

لا يَعلمونَ أنّني أُربّي العُقدةَ تلوَ العُقدةَ عَلى قيدِ المَرضِ حتّى نَزفةٍ أُخرى،
ليصلَ فينا التّعقيدُ إلى سكنٍ شبابيٍّ للأمراضِ النّفسيّةِ ابتلعتهُ تسُونامي الفَوضى، يسمحُ لِي بِافتِراشِ عُقداتي المُدلّلةِ على مَلأ الأرض.

أحمِلُ سكّيناً تغلغلَت بهِ أناملي كطفلِ طَيفِ التّوحُّد وتكمُّشهِ بأُمّه،
وأمشي شاقّاً عِظامَ رقبةِ الممرِّ الخارجيّ للمنفى هذا،
كُلُّ رُخامةٍ منهُم فقرةٌ من فقراتِها،
أستلذُّ بقطعِها كما لَو أنّي أتجرّعُ كأسَ خمرٍ مُعتّقٍ لآلافِ السّنين.
أصلُ لِغُرفةٍ صهَلت خُيولُ دُجاها في عينيَّ
فهرعتُ كاسِراً بابَها
راضِعاً الضّوءَ الخافِتَ الّذي جعَلَ الماءَ في رأسي يغلي على أعلى درجةٍ منَ اللّاشُعور...

(«مريضٌ نَفسيّ»، «تحتاجُ لمُستشفى مجانين»).

لماذا الآن؟!

لماذا يتزاحَمون في صدغي بهذهِ السّاعةِ تَحديداً؟!.

حافزٌ جديدٌ يدفعُني لإكمالِ الشّقِّ الّذي أحدثتُه بالممرِّ والغُرفة

وُصولاً إلى المَطبَخ.

أكسرُ البابَ مُعلناً عن وُصولي الخُرافيّ مع بضعِ طقّاتٍ لفقراتِ عُنقي،

تفحصُ مُقلتيّ المَكان،

أربعةُ كراسي تتوسّطُها طاولةٌ نُثِرَ عليها دِماءُ مُتجلّطةٌ تسكّعت يديّ على شَوارعِ بعضِها،

فتعلّق بها مارّةٌ دَمويّون،

أنفضُ يديّ مُحاولاً منعهُم من جَعلِ أنامِلي قشّةَ الغَريق،

وأمسِكُ الكلارينت المَنسيّةَ الّتي عزفتْ عليها أنفاسِي المُتقطّعة مع تَراقُصِ سُبابَتيَّ والخِنصَرين،

بغطرسةِ مالكِ الحَزين على بقيّةِ الطُّيور،

فتشهقُ الرّياحُ من الخارجِ نافِثةً بي قُشعريرةً ترتكبُ أكبرَ مَذبحةٍ بحقّي.

أُشيحُ بالكلارينت إلى جانِبي وأمشي بهاجسٍ غريبٍ جعلني أتثاقلُ أكثر بالمَشي

إلى أن ألمَحَ شيئاً...

ربّاه!

ألمحُني مُستلقياً على الأرض كحمامةٍ كُسِرَ جناحاها، وتُرِكَت
لتُصارعَ فيصلَ الألمِ وحدها.

أستيقظُ هُنا من نَومي مَفجوعاً بكابوسي،
تذكّر يا أيانُ المُعتادُ على الكَوابيسِ لا تهمّهُ هذهِ البالية...

لحظة!
كُسِرَت صُورةُ أُمّي،
آخرُ ما تبقّى لي من رائِحتِها!

فُتِحَ بابُ المَطبخِ،
مكانُ مَنامي وغُرفتي الوَحيدة.
خُطوة..

خُطوتان..

ثلاثة..

سكّينتي ذاتُها الّتي في المَنام
بيدِ قاتِلِ أُسرَتي،
وهذا كانَ آخرَ ما رأيتُهُ في عالمِ الأحياء.

السّكينةُ الثّامنة:

أخبرتُكم أنّني أيان،
ماذا لو اتّضحَ الآن أنّ لي اسماً آخراً؟!

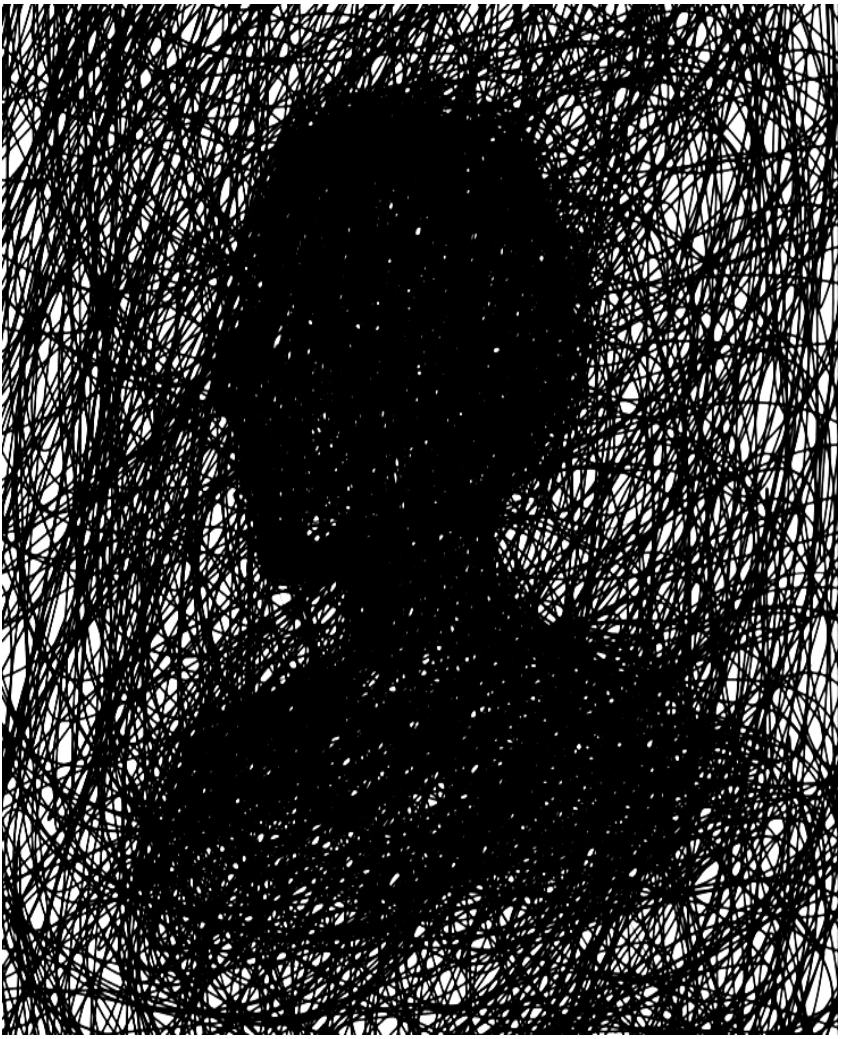

أفتحُ عَينيّ من جَديد وأُغلقُهما،
مرّة، مرّتان، ثلاثة، أربعة، وأكثر...
ربّاهُ أين أنا؟!

تتزاحمُ الأفكارُ في صدغي بطريقةٍ لا أستطيعُ كَبحها بأيّ وسيلةٍ.
تُراودُني مشاهدُ تَطغى عليها صورَتي بشخصيّتي الثّانية. نعم،
أنا مُدركٌ لحقيقةِ أنّي مريضٌ يُعاني الشيزوفرينيا (مرضُ
الانفصام)

وهل أُحاوُل عِلاجي!؟.
لا أعلَم، لستُ شخصاً يحبّ العلاجَ أو الأطبّاء،
كُلّ ما أحبّهُ هو بقائي وَحدي،
والواضحُ من هذهِ الذّكريات أنّني لم أكُن وَحدي
إذاً؟ هناك من آذاني!.

تحليلٌ اعتصرهُ دماغي بطريقةٍ ما، لا أقوى على تذكّرِ أيّ شيءٍ
بهيكليّتهِ الكاملة.
مجرّدُ تجمُّعاتٍ مُنتَهكةٌ أنصافُها:
دماء،
سكّينةٌ بيَدي،
مطبخٌ بشبّاكٍ بَخيل الضّوء،
أرضيّاتٌ مرصّعةٌ بالغرانيتِ الأبيض، وبضعةٌ من الأحاديثِ عن
العقدِ النّفسيةِ المساكينِ اللّذين يَتوقونَ للشّماتة،

كلارينت؟.
ماذا دعاني للذّهابِ إلى مَنزلي القديم!

أحاولُ التّركيزَ أكثر لاسترجاعِ المَزيد من الهيئاتِ الطّاحنة الّتي وَلدَها رحمُ ذاكرتي.

أُغلقُ راحتي يديّ تزامناً مع عَينيّ؛ كي أُجبرَ عقلي على التّذكّر.
لكن للأسف،
الحقيرُ يرفضُ مساعدَتي،
سأستسلمُ في هذهِ الدّقيقة، لا بدّ لي من التّذكّر لاحقاً
إلّا أنـ...
ما هذا؟!

أشباحٌ تحومُ حَولي، أجسادٌ بشريّةٌ تطفو في الهواء، سوادٌ حالكٌ يُحيطُ بي،
أتمزَحونَ معي؟ هل هذا مسرحٌ لتَصويرِ مشهدٍ من مسرحيّةٍ ما؟
أم أنّ هذا الجحيم الّذي أخبَرني عنهُ والدي؟!
لحظة...

والدي، جحيم، بيتُنا بأرضيّته البيضاء، سكّينةٌ بيَدي،
أغمضتُ عينيّ لآخر مرة، اعتصرتُ دماغي. هيا يا بَيان، أنتَ قادرٌ على التّذكّر

هيا، يجبُ أن تتذكّر!
إنه وبلا شكّ الجحيم...

في صباحِ هذا اليَوم، تحرّكتُ من مُستشفى الأمراضِ النّفسيّةِ هرباً إلى بائعِ الخضروات المسكين القاطنِ بجانب المُستشفى، سرقتُ سكّيناً كانَ يستعملهُ وذهبتُ أشحذهُ على حجرٍ مُستريحٍ في الرّصيف حتّى تأكّدتُ أنّه أصبح قاطعاً،

شَقَقتُ كلتا يديّ بعدّةِ أماكنَ، شَقَقتُهما كأنَّهما يَدَا عدوِّيَ وليس أنا، وركضتُ باتّجاهِ بَيتنا،
دخلتُ هائجاً مُشتاقاً لديارٍ تضمّني،
لكن يا خَيبتي...

فزعَ والدي عندَ رؤيتي، وأمي فتحت فَمها على آخره،
أخوتي؟ هرولوا هاربينَ إلى الغرفةِ المُجاورة، وأختي الصغيرة دخلت المَطبخ ولم تعُد.

يا خَيبتي! يا أسفي!
«جُنّ الأطبّاء، إنّهم يَطعنوننا»
حاولتُ التّبرير ومددتُ يديّ أمامهُم، لكنّهم تراجعوا أكثر
«مريضٌ نفسيّ»
«تحتاجُ لمُستشفى مجانين»
صَرَخا بها معاً.

خيبَتي بلغت أجُلّها، أنا ابنكُم ما كُلّ هذا!؟.
لا مفرّ،
أنتُم من جعلني أتعفّنُ مرضاً.

ضربةٌ في عنقِ أبي، أُخرى في عنقِ أمّي، دخلتُ الغرفةَ المجاورة،
ضوءُها ضئيل، لكنّني تتبعتُ صوتَ خوفهم،
قاوموا وابتلعتُ لكماتٍ كُثراً
هه، لكن لن توقفَني، أيضاً تناثرت دماؤهم على الأرض وانتهوا
أخيراً!.

إلى المَطبخ
على عكسهم كانَت تنتظرُني بهدوء، عيناها اللّوزيّتان، وجهُها
البريء، تقاطيعُها الهادئة،
وحدها من كانَت تعرف كيف تُهدِّئُني.

آسفٌ يا صغيرتي، عليّ فعلها!.
احتضنتُها وشققتُ عنقها
بدأتُ صراخاً لا ينتهي،
أبكي وأغمسُ سكّيني في جسدي وأمشي إلى زاوية المطبخ،
أحضنُ صورةَ أمّي وأستلقي قليلاً لأهدأ.

هدأتُ كثيراً حتّى عَودتي من شخصيّتي الثانية،
أفتحُ مقلتيّ، وأمشي بالمطبخ مجدداً
وأقُف أمام المرآةِ الّتي بجانب بابه، أطعنُ نفسي مراراً وتكراراً،
أستلقي على الأرض
وأنظرُ لنَفسي في المرآة،
سكّينتي بيَدي

وأنظرُ لنفسي،

نُفِثت آخر أنفاسي

وأصبحتُ هنا، الجحيم.

قتلتهم جميعاً، قاتُل أسرتي أنا، المجرم أنا، من نثرَ الدّماء في البَيتِ أنا،

مُبارك عليّ الجحيم.

السّكّينة التّاسعة:

ابتعدي عن ذاكرَتي!
أيُّ شيءٍ تُريدين إثباته؟

أستأصِلُ من حبِّكِ هاجِسَ الفَقد
وأُبقي عليكِ مُتلاشيةً في ضياعكِ بأزقّةِ
عَقلي على مَدى الذّاكرة
طيفكِ نَديمي،
أُسامرهُ كأساً وشِعراً
ويُسامرُني كألثغَ عضَّت أسنانهُ على أيّامه
أفتحُ كتاباً أهديتهِ لي

يقولُ فيه الكاتب:
«أهدَتني حبيبَتي في اللّقاء الأخير دموعاً
بـنكهةِ الفودكا»
سطرٌ مناسبٌ جدّاً للتحدُّثِ عنكِ
غريب!

دَوري:
«أهدَتني حبيبَتي في اللّقاءِ الأخير ابتسامةً
لها وَقعُ النُّصول»
هكذا أفضَل
والنُصولُ هُنا كرمحِ جَسّاسٍ في ظَهرِ كُليبٍ
لكن...

توقّفي لوهلةٍ فقط
طعنتِني أنتِ في منطقةٍ يَصعبُ عِلاجُها
سرى فيها العَطبُ يحتُلّ أرجائَها
طعنتِني في الذّاكرة
المسكينة!
لا تتذكّرُ الآنَ إلّا أنتِ وما يخصُّكِ
جريمةٌ وأكبرُ جريمةٍ عرفتُها
أو أنّني لم أعرف الجرائمَ قبلكِ
تذكّري...
من عاشَ عُمرهُ وحيداً لا يُهدّدُ بالرّحيل
ومع هذا رحيلكِ نحرَني
أفتحُ صفحةً أُخرى من الكتاب:
«إلى التّاسع والعشرين من شهر شباط
ذكرى ميلاد إيڤا الّتي لم تُولد بَعد»
صفحةٌ ثانية:
«أنتَ تنتمي إلى ثلاثةِ أوطان:
رحمُ أمّك أوّلاً، الموسيقا ثانياً، وحبيبتكَ إن
كانَت سمراء أخيراً...
عدا ذلك، أنتَ في رحلةِ علاجٍ وسفر»
وهنا على إثرِ الخاطرِ الأخير...
انتَهت مجزرةُ قتلِ جسّاسٍ لكُليب
وانتَهيتُ أنا
وبَقيتي أنتِ لتَسودي صَقعاً لا بأسَ بهِ منَ الدُّنيا وأنا أكبرُه

السّكّينةُ العاشرة:

أسفاً على أنّنا أولادكَ يا بَلدي...

إنّها الثّانية عشرة بعدَ مُنتصف الرّعب.
أتقوقعُ على نفسي في زاويةِ الغُرفة،
وأنظرُ بشراهةٍ إلى وجهِ فتاتي...
أحياناً،
قد يُعاقبكَ القَدر فقط لأنّ قطارَ الأطفالِ فاتكَ دون أن تُحاوَل اللّحاقَ به،
أو ربّما لأنّك أفلتّهُ بكاملِ رِضاك...
مَن أنا؟!.
حسناً،
دعوني أقولُ: إنّني فتاةٌ حاولت التّملّصَ من خَيبةٍ أطعمَتها إيّاها الدّنيا،
فركضَت نحوَ بصيصِ أملٍ وَحيد. أحبّت أن تجرّب، أن تُقنعَ العالمَ بها، أن تكونَ كغَيرها،
لكن لم تعلَم أنّ بصيصَ الأمل هذا ليسَ إلّا قبراً ثانياً...
نعم، في الوقت الّذي كنتُ أحيكُ فيهِ معطَفَ الحبّ، قامَت السّماء بتخريبِ حياكَتي،
أمَّا الآنَ وقد عرّفتُ قليلاً عن نفسي، سأرمي لكُم قصاصةً صغيرةً من رواية حَياتي:
في مطلعِ العاشرةِ من عُمري، والدايَ توفّاهما الله بعدما قرّرا الانتحار بسبب عدم إنجابهما لطفلٍ ذكر. هذا ما صرّحت بهِ جدّتي، لكنّني كنتُ أعلم علمَ اليقين أنّ أمّي كانَت حاملاً بجنينٍ ذكرٍ حضرَ إلى هذا العالم الموحشِ واغتالتهُ يدُ عمّي،
كيفَ علمتَ؟!.

حسناً، هذا حصل أربعِ مراتٍ وليسَ فقط مرّة، كانَ لديهِ خوفٌ من إنجابِ عائلتنا للذّكور، تخيّلوا أيّ ذنبٍ اقترفتهُ عائلتنا حتّى لا نحظى بجنينٍ ذكر! بكلّ بساطة
هم لا ينجبونَ الذّكور بسبب جرثومةٍ في رحمِ زوجةِ عمي تقتلُ الجنينَ في حال كانَ ذكراً.

مرّت الأيّامُ ونحنُ ندري أنّ هذهِ الحال لن تتغيّر، مرّت بثَقلِ حجرٍ كبير على جسدِ فراشةٍ متصدّعة الجناحين،
إلى أن أتى ذاك اليومُ الّذي سالَت فيهِ دماؤنا على أرضِ عيوننا... أذكُر ذاك اليوم كأنّه البارحة،

لن أعُجّ أدمغَتكم بالتفاصيل، إلّا أنّ عمي اغتصب أُمّي، وهيَ..
هه، لم يكُن لديها أدنى مانعٍ من جعلهِ يفعلُ فعلته علّها تحصلُ على ابنها الّتي حرمت منه، في الحقيقةِ كلاهما كانت هذه غايتهما، وحصل على ما أرادَ للأسف.

ولدت زوجتهُ اللعينة بنتاً في يومِ ولادة أمي ولداً، فقتل الفتاة المسكينةَ وأخذ الولد عوضها، وشنق أبي وأمّي على يديهِ اللّئيمتين...
هنا تقريباً كانت نهايةُ حياتي، إلى أن التقيتهُ بعد سبعِ سنواتٍ في قريتنا، هو وحدهُ من انتشلَني من هذا الجحيم، هو وحدهُ من قرّر احتوائي.

أيضاً لن أطيل في التفاصيل، تزوجنا سرّاً وهربنا، تلقّفتنا كفّة
الاستنزافِ بصدرٍ مَبتور، لم أهنأ حتّى شهراً، رصاصةٌ طائشة
اخترقت صدغهُ وحرمتني من ألذّ مناظرِ الحبّ،
سلبتني بقعةَ أماني الوحيدةَ على الكوكب...

وها أنا اليوم
عمري ثلاثون خيبةً، أربّي فتاتهُ الّتي بلغت عمرَ الثلاثةَ عشرَ عاماً،
أحملُها برموشِ عيوني، وأقدّمُ لها محبّتي على طبقٍ من لطافة،
أغوصُ بتقاسيمَ وَجهها القمريّة، وأحبّها حبّ التملّك الّذي لا
يستطيعُ أحدٌ تخيّله...
خشيتُ عليها من شبّان البلاد
فأخفيتُها عن الأنظار، أخرجُ وأقفلُ البابَ عليها، ولا أحداً ليفتحَ
لها حتّى تخرج، لكن حسرتي على غبائي!
نسيتُ أن مَن يُكبتُ كثيراً لن تنفع معه هذهِ الأقفال. تعرّفت على
إحدى شبّان القرية في غيابي، وهذا الحقيرُ عديمُ الشرف أقنعها
رغم صغرها بممارسةِ الرذيلةِ معه...
ردّةُ فعلي؟!
ما رأيكم بردّةِ فعلِ أمٍّ عرفت أنّ ابنتها فقدت عُذريّتها ؟!.
أنا غبيّة، لستُ أدري أيّ جرأةٍ نزلت عليّ وقتلتُها ...
قطعتُ رأسها وعلّقتهُ على بابِ بيتي،
وما كلّ ما فعلتهُ لم يكن إلّا لأقتَل نفسي بعدها ...
سامحيني يا أمّاه!.
إلّا أنّنا في بلدٍ كافرٍ يقتُل الجميع.

في بَلدي:
تُصرفُ جُرعاتٌ مُثقّلةٌ من الترَامادول لمَن يفكّرون بذَكاء،
والمصحَّاتُ العقليّةُ تضجُّ بالمُثقّفين، الحاناتُ مُستَشفياتٌ
للأغنيَاء، والفُقراءُ عِلاجُهم الوحيدُ الهَلاك...
الحبُّ عارٌ لا يُغتفر، والخِيانةُ إحدَى أساسيّاتِ التّقاليد المَشؤومةِ.

في بلدي:
لا تَموتُ لأنّكَ مُتمرّدٌ، بل تَموتُ لأنّك نقيٌّ.
أن تترُك الحذاء مَقلوباً للأعلى حرام،
لكن حلالٌ أن تُعلّق رأسَ ابنتَك كرمزٍ لغسلِ العار على بابِ بَيتك..

في بَلدي:
النّاجحون تحاربُهم الدّنيا
والفاشلون يرتقونَ لأعلى درجاتِ العُلا،
لا اجتهاداً يُقدّمُ بل مالاً يُنثرُ في جيوبِ الطُّغاة..

في بَلدي:
يُحلّلون ويُحرّمون على هواهُم،
والمتّهم الوحيد بالفجائعِ القائمةِ هو الدّين.
يسفكُون دماءَ القلوبِ بكَلمة، ويستكثرونَ عليكَ مُعاملةً لطيفةً
تُخرجُك من وَضعك..

في بَلدي:
يمرّ اليَومُ كلَمحِ البَصر، ولمحُ البصرِ هذا كشقاءِ ألفِ سنة.

في بلدي:
الخذلانُ هوايةُ الجُبناء،
والخيباتُ تُحصى على أصابعِ اليَتامى،
على كلّ أُصبعٍ ثمانونَ خَيبة.
الحبّ يُرشُّ على أرصفةِ القُبور
لا حبّاً لمَن هُم على قيدِ الرُّؤية،
الاحترامُ كلّهُ لجَميلِ الوجهِ لا لجميلِ الرّوح،
جميلُ الرّوح يُنسى في خانةِ المُستحاثّات البشريّة.

في بلدي:
تهربُ من الفَوضى
لتتلقّفكَ كفّةُ الاستنزاف.
تحتَمي منَ الألمِ عندَ صانِعه،
وتَحقنُ نفسكَ بالصّلاةِ فقط عندما تُخطئ.

في بلدي:
أنتَ الحيّ، وأنتَ الميِّت، وأنتَ المُعلّق.. ما بينَ العَيشِ والمَنطق

ختاماً:

قلتُ سابقاً،

لن تتذكّروا أيّ سكّينةٍ كانَت أحنّ،

أتظنّونَ انفسكُم تعانون؟

ما رأيكُم الآن؟!

ابقوا بخير حتّى يصدرَ كتابي القادم،

كلّ الحبّ

شيماء

إلّا أنّني
لم أعُد أتذكّر
أيّ السّكاكين كانَت أحنّ...

بقلم: شيماء زهر الدين
تصميم: ياسر خانكان